

## الفصل الأول

### الأمير يوسف كمال راعي الفنون الجميلة

فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر شخصيات مغمورة لم تسترّع أنظار الباحثين، ولم تجذب إنتباههم رغم أهمية ما لعبته هذه الشخصيات من أدوار، وما خلفته من آثار، فكانوا كالمعالم المضينة التى عبرت عن وجدان وطنهم ، وتركوا أعمالاً جلييلة تشهد على قدرتهم فى إزدهار الحركة الفكرية والفنية فى مصر، وكان من هؤلاء الأمير يوسف كمال مؤسس أول مدرسة الفنون الجميلة فى مصر والعالم العربى. تلك الشخصية الفنية الموهوبة والفريدة فى رحابة فكرها وسعة صدرها ، فكان فنانا بطبعه وروحه، وكان ميله كله منصبا على التعبير عن المثل الأعلى فى الفن ، كما كان رجل نو فكر وبراعة محبا للفنون الرفيعة وعاشقا لها ، يتحدث الإنجليزية بطلاقة ، وله مظهر متميز يتسم بالحياء .

ولد الأمير يوسف كمال فى عام ١٨٨٢، وهو ابن الأمير أحمد كمال حفيد ابراهيم باشا الكبير الابن الأكبر لمحمد على باشا مؤسس مصر الحديثة. (١) كان ضمن أعضاء الأسرة المالكة الذين اهتموا بالشنون العامة فى مصر، وقد إتخذ من ثرائه ومن أملاكه الطائلة من الأراضى الزراعية التى تركها له والده مجالا واسعا للنهوض ببعض القرى المصرية خاصة فى الصعيد والعديد من المرافق العامة (٢)، فقد حددت ثروته فى عام ١٩٣٤ بعشرة ملايين من الجنيهات وبلغ ما امتلكه فى عام ١٩٣٧ (١٧) ألف فدان تدر ريعا سنويا قدره ٣٤٠ ألف جنيه وهو مبلغ كبير إذا قيس بقيمة العملة فى ذلك الوقت.

لقد عاش الأمير يوسف كمال حياة نشطة حافلة بالاهتمامات الثقافية والفنون الرفيعة والنشاط الاجتماعى كما كان مولعا بصيد الحيوانات المفترسة وغامر بذلك خلال أسفاره فى أركان المعمورة خاصة خلال زيارته للهند وجنوب أفريقيا وخلال تنقلاته فى صحارى مصر، وقد احتفظ بالكثير من جلود فرانسسه وبعض رؤوسها محنطة فى قصره بالمطرية التى تحول إلى متحف بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

(١) بردت ترجمته فى كتابى " صفة العصر " و " دليل الطبقة الراقية".  
(٢) منكرات الخديوى عباس الثانى : عهده ١٨٩٢ - ١٩١٤، القاهرة، دار الشروق، ص ١٦٢.

وخلال رحلاته إلى أوروبا ركز اهتمامه على جمع القطع النادرة من اللوحات الفنية لمشاهير المصورين في أوروبا خاصة فرنسا هذا بالإضافة إلى جمعه لمجموعة من القطع النادرة من الفن الآسيوي والفن الإسلامي وكان مولعا بالتاريخ ، ونتيجة لاهتمامه به أمر بطبع كتاب "وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية من أفريقيا الشمالية" للمسيوحيان<sup>(١)</sup>، و"المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة" وكتاب " رحلات سياحية إلى بلاد الهند والتبت الغربية عام ١٩١٥ " وكتاب عن رحلة في أدغال أفريقية.<sup>(٢)</sup>

وقد اشتهر الأمير يوسف كمال بحبه للفنون، وعندما طرح عليه عددا من الفنانين الأجانب في مصر وعلى رأسهم المثال الفرنسي " غاليليو لابلان" فكرة إنشاء مدرسة لتعليم الفنون الجميلة للمصريين على غرار الأكاديميات في فرنسا وإيطاليا، وقد ظلت هذه الفكرة تراوده خاصة وأنها وجدت صدى في نفسه، ولاقت هواه رغبته في القيام بعمل خدمة عامة لوطنه تحفظ تاريخه وتراثه الفني ، وتقدم له مجموعة من أبنائه الموهوبين في الفن والإبداع، فأسس مدرسة الفنون الجميلة من ماله الخاص رغم العراقيل التي وضعها البعض لمنع افتتاح هذه المدرسة بحجة أن مصر لم تنهيا لظهورها بعد، خاصة وأن مصر في ذلك الوقت كانت تموج ببعض التيارات الدينية المعارضة للفنون حتى أن بعض الدعاة المتطرفين أجمعوا على تحريم ممارسة أعمال الفنون التي قالوا عنها أنها شرك بالله، ورجس من عمل الشيطان وذنس، ومشابهة للخالق عز وجل في خلقه وردا على ذلك أدلى بعض المفكرين بأرائهم المناقضة لهذه الآراء التي أثارت الظنون والريب والتشكيك وجعلت فكرة إقامة المدرسة بعيدة التنفيذ، وكان في مقدمة هؤلاء جرجى زيدان، واحمد لطفى السيد، وقاسم أمين، والشيخ محمد عبده.

فذكر جرجى زيدان أنه يجب النظر إلى الفن التشكيلي في إطار ثقافة الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وطالب بوجود مدرسة في مصر تعلم المصريين هذا الفن، ونشر

(١) طبع في ١٣ مجلد باللغتين العربية والفرنسية.

(٢) أربع لطفى جمعه : محمد لطفى جمعه وهؤلاء الإعلام، القاهرة، دار الوزان، ١٩٩٠.

لطفى السيد فى الجريدة مقالات عن الفنون الجميلة يوضح فيها أهميتها وضرورتها الحيوية، وأشار قاسم أمين فى كتاباته إلى أهمية الفن باعتباره قرينا للنهضة. (١)

أما الشيخ محمد عبده فكان من طليعة المدافعين عن الفن وأهله وبعد الدراسة والتشاور فى شأن إنشاء المدرسة لمدة ستة أشهر قرر الأمير يوسف كمال إخراجها إلى حيز الوجود، وانفق على العديد من طلابها ومنهم النحات المشهور "محمود مختار" حتى يستكملوا دراساتهم الفنية فى أوروبا، واستحضر الأساتذة من المصورين الفرنسيين والإيطاليين للتدريس فيها إضافة إلى مساهماته فى الإنفاق على التعليم، ومؤسساته، ومن ذلك نذكر: تبرعه للجامعة المصرية الأهلية التى تأسست فى عام ١٩٠٨ بعدما تعرضت لأزمة مالية خلال الحرب العالمية الأولى جعلتها تتعثر فى أداء رسالتها وأدى إلى اضطراب موقفها المالى خاصة بعد أن قررت الحكومة إنقاص الإعانة التى تقدمها للجامعة من سبعة آلاف إلى ثلاثة آلاف جنيهه<sup>(٢)</sup>، فقدم الأمير للجامعة مبلغا من المال يقدر بالآلاف من الجنيهات، وتحمل المشاركة فى نفقات بعض بعثات الجامعة للخارج، كما أعطى لهذه الجامعة الوليدة ملكية مائة وخمسة وعشرين فدانا من أملاكه بالقلوبية للاستفادة من ريعها فى الإنفاق على متطلباتها. (٣)

أما عن ولع الأمير يوسف كمال باقتناء التحف الفنية فكان شديد الولع بشراء اللوحات والقطع الفنية من الخارج والداخل وتقديم بعضها إلى المتحف الإسلامى كإهداء منه فاهدى هذا المتحف عددا لا يحصى من التحف الأثرية والمقتنيات الثمينة مثل آثار وقيمة من الثريات ومنابر المساجد والسيوف والمشغولات الذهبية والمصاحف والدروع، وقد حرص على تسجيل كل قطعة من هذه الهدايا مع وصف تفصيلى لها وذكر تاريخ صنعها وبلد الإنشاء، كما قدم له مساعدات مالية حتى يستطيع القيام بتأدية دوره.

لقد كانت مشاعر الأمير يوسف كمال تجاه الفن واضحة لدرجة أنه جعل من قصره بالمطرية مكانا لتزواج العمارة العربية الإسلامية مع العمارة الأوربية، حيث كلف المهندس

(١) محمود البوى الشال: محمود مختار، راند فن النحت المعاصر وتقوم أعماله الفنية، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٥، ص ١١-١٢.

(٢) للتفاصيل انظر: الجامعة المصرية: تقرير مجلس الإدارة المقدمة للجمعية العمومية بجلستها فى ١٧ يونيو ١٩١٥، ص ٦.

(٣) مذكرات الخديو عباس الثانى: عهدى، ص ١٦٢.

الفرنسي "انطونيو لاشياك" فى عام ١٩٠٨ بتأسيسه على هذا النمط، كما جعل من هذا القصر منتدى لرجال الفكر والفن حظى فيه الفنانون التشكيليون الأجانب برعاية خاصة، حيث كان يستشيرهم فى اقتناء وتكوين مجموعات من اللوحات الفنية لمشاهير المصورين فى أوروبا وبالأخص فرنسا حيث كانت تنبثق فى باريس مدارس الفنون التشكيلية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وقد حرص على اقتناء لوحات رائعة من المدرسة الانطباعية انضمت فيما بعد إلى مجموعة محمد محمود خليل الذى يحويها متحفه بالقرب من شيراتون بالجيزة، كما انضم بعضها إلى متحف الأمير محمد على بالمنيل.

ومن خلال هذا الصالون توطدت صداقته بالنحات الفرنسي " غاليوم لابلان" المقيم فى مصر فى ذلك الوقت. (١)

وإلى جانب كل ذلك فقد كان الأمير يوسف كمال واحدا من ثلاثة مرشحين لتولى ملك مصر فقد رشحه السلطان حسين كامل الذى تولى حكم مصر أثناء الحرب العالمية الأولى بعد إقصاء الخديوى عباس الثانى كوريت له بجانب الأمير "كمال الدين حسين" والأمير " احمد فؤاد".

لقد عاش هذا الرجل فترة مديدة فى حياته مليئة بالنشاط حتى وافاه الأجل فتوفى فى عام ١٩٦٩ عن عمر يناهز السابعة والثمانين عاما فى مدينة " اشترويل" بالنمسا حيث كان يمتلك شاليها للصيد هناك.

وهكذا رحل راعى الفنون عن دنيا الأحياء، ولكن ذكره ستظل باقيه نظير ما قدمه لوطنه من جلائل الأعمال. وما أحوج أبناء هذا الجيل إلى مثل هذه النماذج المضيفة التى تلهمه وتحمله على الاقتدار والاهتداء إذا غابت القدوة وغاب الكبرياء.

(١) كتيبة الفنون الجميلة: نعيد المنوى للكلية، مائة عام من الإبداع، ١٩٠٨-٢٠٠٨.